الصحراء و إعادة تشكيل الهامش في الرواية العربية

The desert and the reconfiguration of the margin in the Arabic novel

تحري ليلى[1]

[1]جامعة الشاذلي بن جديد الطارف –الجزائر tahrileila@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/09/05 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

استطاعت الرواية في أقل من قرن أن تترسخ في ثقافة المنطقة العربية وأن تتصدر قوائم الإصدارات الأدبية في الوطن العربي غير أن النتاجات الأدبية بوصفها أشكالا ثقافية اقتصرت على الكتابة عن المدينة ومجتمعها، وبعد مرحلة التمرين والاستفادة من التقنيات الغربية سعى لفيف من الكتاب للبحث عن البديل الذي يخلصهم من عقدة الانبهار بالآخر ومنجزاته والالتزام بفن روائي يترجم الخصوصية العربية فكانت رواية الصحراء كمتنوجب قراءته في أبعاده الأنثروبولوجية والجمالية وتداعياته السياسية التي وجد فيها الروائيون مرتعا خصبا لأفكارهم و توجهاتهم.

كلمات مفتاحية: الرواية؛المدينة ؛ الفضاء؛ الهوية ؛ الصحراء

Abstract:

In less than a century, the novel was able to be entrenched in the culture of the Arab region and topped the lists of literary publications in the Arab world. However, literary productions as cultural forms were limited to writing about the city and its society, and after the stage of training and benefiting from Western techniques, a group of The book is to search for the alternative that rids them of the complex of fascination with the other and his achievements and commitment to the art of a novelist that translates Arabic privacy, so the desert novel was a must-read in its anthropological and aesthetic dimensions and its political repercussions in which the novelists found a fertile breeding ground for their ideas and orientations.

Keywords;Novel; city; space; desert; identity; margin; semantics

المؤلف المرسل: الاسم الكامل، **الإيميل**: **ليلى تحري** tahrileila@gmail.com

1. مقدمة:

نشأت الرواية العربية في بداياتها مرتبطة بالغرب الذي أحكم السيطرة فكان اللجوء إلى فضاء المدينة باعتبارها فضاء تاريخيا و جغرافيا و اجتماعيا ،فضاء غيريا بامتياز حملت هموم و تطلعات المجتمع الغربي فكانت ملحمة بورجوازية على حد تعبير **جورج لوكاتش**(Georg Lukac)،لكن المدينة التي تبحث عنها الرواية العربية مدينة غائبة و لا أساس لها فبعد مرحلة الانبهار و الأخذ من التقنيات الغربية تولدت مرحلة مغايرة في تاريخ الرواية العربية مخالفة في توجهاتها و منطلقاتها عن الغرب استمدت وجودها من النبش في التاريخ و التراث الأصيل فكان اللجوء إلى الفضاء الصحراوي باعتباره خطابا تحريضيا ترجم الخصوصية العربية و حمل عمق الانتماء إلى المجتمع العربي، أراد الروائيون من خلاله التأسيس لرؤى رمزية تتشابك مع التاريخ ومع التراث و مع الهوية لينفتح التوظيف على إيديولوجيا قائمة على ميلاد الذات العربية و استرجاع الهوية التي سعى الغرب للقضاء عليها.

فكيف تتشكل رواية الصحراء التي هي بعيدة بطبيعة عالمها عن رواية المدينة ؟

وما الحمولات الدلالية التي أراد الكتاب تمريرها من خلال العودة إلى موضوع الصحراء ؟

ما الذي أرادت أن تقوله رواية الصحراء في لحظة من اللحظات الحرجة من تاريخ الإنسان العربي؟

2. من رواية المدينة إلى رواية الصحراء :

ارتبطت التآليف الروائية العربية في بداية عهدها بفضاء المدينة نتيجة انبهارها بالغرب و منجزاته، و بات في حكم المؤكد أن الرواية العربية هي نوع أدبي جديد استمد مقوماته من الأدب الغربي إثر الاتصال مع الغرب، فكانت المدينة هي الطرف الأقوى و المسيطر في الرواية العربية و شغلت بمجتمعها المركب حيزا كبيرا في الكتابات الروائية، فعاش الكاتب الروائي العربي حالة تمزّق حين أصبح موزعا بين عالمين هما: العالم الغربي و العالم الشرقي، فهو منتم بفكره إلى العالم الغربي و منتم بعلاقته الاجتماعية إلى المجتمع العربي، و بناء على ذلك فلن يكون أمامه خيار حين يكتب إلاّ أن يكتب لقارئ على شاكلته.إنه قارئ عربي ينتمي إلى العالم الغربي الحديث . (رزان، 2003، ص195)

غير أن المدينة التي تنقب عنها الرواية غائبة في معظم الأحيان ،فتبدو كما لو كانت مدينة لا تاريخ لها تغوص في تراكم كمي عقيم ،وتظل معلقة في زمن الغوغاء ،كما ذهب إلى ذلك فيصل دراج.

لقد كان الآخر و عقدة الانبهار به هو الإطار المرجعيللذات العربي في كل الأحوال كما لو كان التقدم يمكن أن يتمّ بمحاكاة تتحول معها الأنا إلى مرآة تعكس الآخر ،لذلك كان لابد من إطلاق وعي

حداثي جديد يضع تلك الذات موضع التساؤل ، ولأن الحداثة تعني الثورة و التمرد ، كما تعني التطلع الدائم إلى مستقبل يعد بالتقدم و الدخول في عالم المغامرة. تولّدت مرحلة مغايرة في تاريخ الرواية العربية و برز خطاب جديد مخالف في منطلقاته وموضوعاته، و انبثق تصور جديد في رؤية العالم، تصور قائم على ضرورة البحث عن بديل للثقافة الدخيلة، وبديل للمدينة و مجتمعها المعقّد، هذه المدينة التي تهدّد الوجود العربي وتساعد على تلاشي الهوية، و بذلك كان لزاما على الروائيين معاداة الفن الروائي الغربي والالتزام بفن عربي أصيل يترجم الخصوصية العربية القومية ويحمل جزء من عمق الانتماء إلى المجتمع العربي ،فكانت رواية الصحّراء بمثابة البديل الذي خلّصهم من عناء الانتماء إلى الغرب و تجاوز مرحلة الغواية و قطع صلات النسب الوهمية مع الفن الروائي الغربي، فكان الارتماء في حضن المكان الصحراوي الذي وجد فيه الروائيون مكانا خصبا للتعبير عن أفكارهم و توجّهاتهم بعد ما تمكّنوا من إحكام السيطرة على تقنيات الفن الروائي" و مثل ذلك المكان الضالة المنشودة التي عثر عليها لتكوين رواية عربية أصيلة تسعى نحو الاستحواذ و السيطرة" (صالح، 1996، ص18)

لقد استطاعت رواية الصحراء أن تصوغ لنفسها حوارات كثيرة حول منحى التوجه إلى أدب الصحراء كما استطاعت أن تطرح الكثير من التساؤلات ذات الدلالات الرمزية لتؤسس عبرها موضوعا روائيا قائما على تبادل الرموز و الإشارات للحفر في الباطن التاريخي التراثي من جهة و الروائي من جهة أخرى، فقد أدرك العرب أن لا شيء يصنع التاريخ غير الأصل ،والمكان الصحراوي رغم غيابه واندثاره ما يزال يفعل بعنف وقوة في الفضاء العربي الحاضر ويتدخل في توجيه السلوك اليومي ويحدد صيغ إدراكنا للواقع.

لقد تحولت الصحراء من مكان جغرافي جيولوجي إلى موضوع للكتابة الروائية و من خلال فضائها اللانهائي طرح الروائيون أفكارهم و رؤاهم، إنهم بانجذابهم إلى ذلك الفضاء أرادوا التعبير عن مقدار الحنين إلى وطن قد همّش و ترك جانبا مقصيّا ولكن من ذلك المهمش ولد المركز فكانت مركزية الصحراء ، رمز النشأة الأولى و رمز الانتماء ، وبذلك فقد جعلت الرواية _التي اتخذت من الصحراء موضوعا لها _ القارئ يحيا مع التاريخ ومع الذاكرة ويستخرج من تلك الذاكرة تلك الصحراء الفضاء المهمش التي تمثل التراث و التاريخ المنسي الذي كان لا بد أن يقيم معها جسور الترابط لمواجهة القوى الخارجية ويسعى إلى أن ينتزع من ذلك التاريخ اعترافه بخطيئته التي ارتكبتها كل الأجيال التي تخلت عن أصلها وجذورها ،وتخلت عن هويتها وصحرائها لأن الصحراء رمز الهوية رمز الذات العربية وما الرجوع إليها والتمسك بها

إلا محاولة لاسترجاع تلك الهوية الضائعة التي سعت الدول الغربية إلى طمسها " فالصحراء هي التراث الذي لا يمثل نصبا تاريخيا ولا هوية واحدة ،بل يمثل سلسلة من الهزائم والانتصارات ،إنها ليست تاريخ الهوية الفردية وإنما هي تاريخ الوجود "(الغانمي، 2000، ص56)

لقد التقـط الروائيون العرب في مشروعهم الروائي الضخم و هو مشروع الكتابة عن الصحراء و انجـاز رواية عربية صحراوية أصيلة تكون قادرة على الوقوف في وجه أعاصير رواية المدينـة التي فرضتها الحضـارة الغربيـة، واستطاع جمع من الروائيين أن يلتقطوا أكثر اللحظات خصوصية في حياة المجتمعات العربية التي مازالت تقبع وتئنّ تحت ضغوط القوى الغربية ما أدى إلى ترسيخ التمركز الغربي الذي يريده الآخر، لجئوا إلى التراث يستمدون منه الأصالة و القوة و ما لجوؤهم إلى ذلك التراث المنسي القابع في الذاكرة و تمسّكهم به إلاّ تمسّكا بالوطن العربي و إثباتا منهم بأن إرادة الدفاع عنه حيّة لا تموت في فضاء عربي أصيل. "و هكذا انطلقت الرواية العربية من كتابة التاريخ المعاصر الذي لم يكتبه المؤرخون متطلّعة إلى تاريخ سويّ و حالمة بمدن و فضاءات تعطي الرواية قراءة مجتمعيّة "(النابلسي، 1991، ص14).

لقد تبيّن واضحا أن المدينة و مجتمعها ما هي إلاّ فضاء يشعرنا بالاختلاف ، هي شكل من أشكال ضياع الهوية و هي فعل تهديد للمجتمعات العربية ، و بذلك فقد استطاع الإنسان أن يخلق نفسه بنفسه وأن ينشئ كونا أصيلا يشهد على عظمته فكان فضاء الصحراء الذي يصنع القادة و العظماء. لأن العيش في ذلك الفضاء لن يتسنى إلا لأولئك الأقوياء .

3. مركزة الهامش و تهميش المركز في الرواية العربية:

برز الحديث عن الهامش في فلسفة ما بعد الحداثة كمساءلة نقدية للأعطاب التي وقع فيها المشروع الحداثي الذي احتكر مجموعة من الأنصاب و المتعاليات الكبرى" إن معالم المرحلة الراهنة من معالم المعرفة الإنسانية هو سقوط النظرية الكبرى و عجزها عن قراءة العالم "(عطية، 2010، ص131)

فقد جاءت ما بعد الحداثة لتساؤل فاعلية الأدوار المركزية و لتعيد الاعتبار لفكر الهوامش فانطلقت من تهشيم النسق المركزي في الثقافة الغربية مع فلاسفة و مفكرين دحضوا المقولات الكبرى و احتفوا بثقافة الهامش ، التفكيك التشظي ،اللاانتماء مع **فريديريك نيتشه**(Friedrich Nietzsche) الذي عمل على تدشين حركة إلا تنصب على الإله المسيحي و لا على الهة الأديان بوجه عام بل المقصود بها هو عالم ما فوق المحسوس و عالم الميتافيزيقا و المثل بوجه عام "(عطية، 2010، ص178) إن الاله قد مات في نظره هو موت للمتعاليات التي حكمت الفكر الغربي تلك الثوابت و المطلقات التي فقدت دعامتها

وانهارت أسسها فلا الميتافيزيقا ولا العقل ولا أي شيء آخر قادر على إعادة التوازن للعالم الذي يحياه الإنسان و بما أن تلك الأسس قد انهارت فالنتيجة هي الاحتفاء بالفكر العدمي الذي نادت به ما بعد الحداثة . لكن إذا كان ذلك الفيلسوف قد قال بفكرة موت الاله والتبشير بالفكر العدمي إلا أنه خلق إلها آخر هو ذلك الإنسان الأعلى الذي يعمل على قلب القوى و الموازين لتتحقق بذلك إرادة القوة التي تتحقق بين السيد و العبد " إن الوجود فعلا هو الحياة و الحياة فعلا إرادة و لكن الإرادة هي إرادة القوة و تقديسها " (عطية، 2010، ص179) بتلك الصورة تكون الحياة مبنية على الاستغلال و الاستيلاء على الآخرين فمن يمتلك القوة يمتلك الحياة و الحياة و القوة مترادفان : الحياة وجود و الوجود قوة هي المعادلة التي تنطلق منها فلسفة **نيتشه**.

ومثلما عمل **فريديريك نيتشه** على تقويض بداهات العالم الحداثي الغربي و سقوط الميتافيزيقا التي قام عليها لصالح عالم متغير لا يخضع لأي معايير كان **سيغموند فرويد**(Sigmund Freud) بدوره الذي أعلن صراعه ضد المركز / العقل " فالتحليل النفسي عنده يرفض اعتبار الشعور مكونا لجوهر الحياة فبدل الانطلاق من الشعور ينبغي الانطلاق من اللا شعور "[8]فإذا كان المشروع الحداثي قد راهن على الانتصار لسلطة الوعي / العقل إلا أن ذلك العقل أثبت عدم فعاليته في تفسير الحقائق بعدما كشفت التجارب الفرويدية عن الجانب الآخر من الحياة النفسية اللاشعورية فكانت أهم هجوم منهجي ضد الأنا الديكارتية الحداثية .

وكما كان **سيغموند فرويد** كان **ميشال فوكو**(Michel Foucault) بدوره الذي أدان في مؤلفاته السلطة الغربية وفكك مركزيتها و كشف عن مظاهر القمع و الإقصاء التي ميزت المجتمع الغربي،فالنزعة الإنسانية و التسامي الإنساني الذي كان من أبرز سمات المشروع الحداثي مهد بوفاة ذلك الإنسان بعدما رفع **ميشالفوكو** شعار موت الإنسان ، إنه الحديث عن موت النزعة الذاتية و الإنسانية في ظل عالم التقنية الذي ولد اغتراب الإنسان وألغى ذاته في عالم الحروب و التكنولوجيا فبدا الإنسان أمامها عاجزا لم يعد قادرا على الوقوف في وجهها .

لقد أكد **ميشالفوكو** من خلال حفره في بنية النسق المعرفي الغربي أنه نسق لا إنساني تقوم فيه السلطة بقمع الخطابات فانطلق "من أن هناك مؤسسات تمارس الرقابة على المجتمع وكل من خرج عن سلطة تلك المؤسسات يودع في أماكن الحجز التي تسهر عليها عيون الشرطة ، إنهم أولئك المجانين المرأة التي

خرجت عن قيود الأسرة ،مرضى الجذام و الأمراض التناسلية ،كل أولئك يوضعون في تلك الأماكن" (تورين، 2006، ص72).

في هدا الجو الفكري الملغم بالنظريات الفكرية و الفلسفية كانت عودة الذات العربية إلى التراث و الهامش، إلى الصحراء كفضاء عربي أصيل و كهوية منسية مدفونة تنفتح على كثير من الرؤى و التوجهات لتصوغ منه وجودها الأصيل.

لقد سعت الذات العربية من خلال العودة إلى موضوع الصحراء في الرواية العربية إلى استحضار الماضي/ التراث ليكون مرتكزا أساسا، فاستحضرت زمن القوة، زمن التحدّي، زمن العروبة و وحدتها و ما حقّقه العرب من انتصارات في كافة المجالات، فحلم الروائيون من خلال الاهتمام الحاصل بموضوعها و تجلياته بمستقبل أحسن تتحقّق فيه القيم المفقودة و تحلّ محل الواقع. إنه التطلّع إلى زمن بديل فتلاشت الصورة القديمة عنها واتجهت إليها الأنظار باعتبارها بكرا لم تتناوله الأقلام، فتحولت إلى ملحمة من الملاحم الإنسانية التي تصنع التاريخ والوجود: من الصحراء القاحلة الجافة إلى رمز من رموز الحضارة العربية ، وفي ذلك يسأل الصحفي علي الزين الروائي الليبي **إبراهيم الكوني** الذي استطاع بأبحاثه أن يحول عالم الصحراء إلى بؤر سردية مثيرة تحتفي بالغرابة و العجائبية : أنت كثيرا ما تتحدث عن الصحراء والعدم فما هو الرابط بينهما ؟ فرد الكوني عليه قائلا : لست أنا من يقرن الصحراء بالعدم ،لكنها نزعة عامة عند كل الناس يقولون صحراء ،جحيم ،خلاء ،يعني النظر إلى الصحراء بروح سلبية ،يلعنون الصحراء في كل عبارة وهذا إثم كبير ،لأن الصحراء قرين الحرية ،قرين لأنبل ما في الوجود ،لذا يجب أن نكبر الصحراء ،أن نركع لها، أن نصلي لها لأن كل علامة فيها هي صلاة للأبدية .الصحراء قاسية بطبيعة الحال لأن الحرية قاسية، هي عدم لأن الموت عدم" (فوكو، 2006، ص72)

لقد أثارت رواية الصحراء و أثار الروائيون العرب من خلالها الكثير من الجدل حول هذا التاريخ المنسي القابع في الذاكرة و برزت العديد من الأسئلة التي شكلت إلحاحا كبيرا حول اللجوء إلى ذلك الفضاء ،فقد تغيّر المدلول العام للصحراء العربية الجغرافية و اتجهت إليها أنظار الروائيين الذين أرادوا إنجاز رواية عربية أصلية و كتابة نصّيّة عن ذلك الفضاء المهمش الذي ظلّ مطمحا من مطامح الرّواد الذين نلتمس آثار الصحراء بعنف و امتداداتها في خطاباتهم الروائية، فالصحراء بمثابة الذاكرة و الخزان ، هي المكان البكر غير المطروق الذي لم يلتفت إليه أحد من الروائيين من قبل، فكانت تحيل على جدة التجربة

في ظل سياق ثقافي معاصر اختزل الإنسان العربي ، لتتحول الصحراء إلى رمز من رموز الذات و إثبات الوجود.

4. الحمولات الدلالية لتوظيف الصحراء في الرواية العربية :

لقد تغيّرت النظرة إلى الصحراء من الصحراء ذات الطبيعة القاسية، ذات الجغرافيا المتغيّرة إلى الصحراء الروائية التي تتمتّع بخصوصيات فنيّة جمالية فاستطاعت أن تكسر القيود والأغلال التي خنقت الإنسان، إنها قيود التبعية للغرب و الرضوخ لهم، إنها تابوهات رواية المدينة التي أنست العرب أصولهم و جعلتهم يلهثون خلف السراب. لذلك فقد انطلق الروائيون ينقّبون في الدفاتر والأوراق، يتنقلون بحثا عن كل ما يمتّ بصلة لأصالة الإنسان ليضبطوا الأسس الصحيحة للفن الروائي، فكانت الصحراء وكان الارتماء في حضنها و الارتشاف من نبعـها، فتجاوزت تلك السكونيـة والطبيعة القاسية وأصبحت رمزا من رموز الحضارة الأصلية، "فالمتعارف عليه أن الفكر الغربي هو الذي تكفل بالواقع يشرحه ،يحلله يقيم فيه ما ارتآه من المؤسسات والأنظمة ماض به إلى حدود من التغير والتطور ما تنفك تزداد انغلاقا على الفكر العربي وتقضي عليه بالنفي بعيدا إلى إن انتقل العرب إلى فضائهم الأصل ،إنه الانتقال إلى فضاء الصحراء الذي يصنع القادة والعظماء ويحمل بالقوة أسباب انتاج المستقبل والاقتناع بعدم التنكر للتاريخ ،لقد كان الاقتناع بأن لا مكان في التاريخ لغير التاريخ " (صالح، 1996، ص123)

لقد تغلغلت الصحراء في نتاج العديد من الأدباء و الفنانين كما تغلغلت في أعماقهم، و من خلال اللجوء إلى عالمها الأصيل نجد رؤية جديدة للعالم متميّزة بطبيعتها عن الرؤى التي كانت سائدة من قبل، فكانت رواية الصحراء بمثابة المرآة التي سيرى فيها العرب أنفسهم. إنها الصحراء الهوية التي لا وجود فيها إلا للقوي فقاموس الصحراء لا يقوم إلا على القوة و السيادة و التحدي فكأنما هي رسالة إلى الغرب الذي انتقص من قيمتنا وحط من قدرنا من خلال الصور النمطية و التمثيلات الثقافية التي تدعمتبآراء المستشرقين والذين رأوا في ذلك الفضاء مكانا للرمنسة بأننا نحن العرب أقوياء و هو ما عبرت عنه روايات **غسان كنفاني** الذي حاول أن يثبت الفكرة من خلال أبطال رواياته فأبطال "رجال في الشمس" انهزاميون لم يحتملوا قساوة الصحراء ولم يحتملوا العيش في وطنهم و قبلوا صلابة الصهريج على صلابة الأرض فانتهوا ثلاث جثث ملقاة على مزبلة من مزابل الصحراء،فقد أمد المؤلف فضاء الصحراء بخيوط الموت و القهر و العذاب فكانت عنده بعدا استراتيجيا تتحدد به الأبعاد الأخرى فكان الفضاء بذلك بطلا من أبطال الرواية صنع أكثر الأحداث فجائعية "كانت الشمس ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقة و لم يعد

أحد منهم يهتم بتجفيف عرقه، فرش أسعد قميصه فوق رأسه و طوى ساقيه إلى فخذيه و ترك للشمس أن تشويه بلا مقاومة" (كنفاني،1972،ص129)

عبر المؤلف في روايته عن عالم فلسطيني مغلق رغم انفتاح الفضاء قوامه البؤس و الهوان لينفتح على خارج عربي قوامه السمسرة و المتاجرة بالأرواح و أوضح أن الهرب عبر الفضاء الصحراوي حل خاطئ يؤدي إلى طريق مسدود "فالشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لهب أبيض و شريط الغبار يعكس وهجا يكاد يعمي العيون ....كأن هذا الخلاء عملاق خفي يجلد رؤوسهم بسياط من نار وقار مغلي" (كنفاني،1972،ص131)

إنها صورة من صور قساوة الفضاء الصحراوي ،فالشمس لم تكن لترحم الرجال بل كانت عبارة عن لهب يصهر رؤوسهم و جلودهم ، مظاهر توحي بالتعب و العناء و الاستسلام ، و لئن كانت الرواية الأولى عبر فضائها قد أعلنت عن بؤس عربي يقمع الوجود الفلسطيني فإن رواية "ما تبقى لكم" هي السبيل للخروج من العجز و الاستسلام، فقد احتمل حامد بطل الرواية قساوة الفضاء فاستطاع أن يهزم العدو الصهيوني واكتسب قوةلم تعهدها حياته في المخيم، فرغم أن فضاءها فضاء الخطر حيث لا علامات و لا ماء، إلا أنها الجسد الذي احتضن خطوات حامد " سقط الظلام تماما الآن و سقطت معه ريح باردة صفرت فوق صدر الصحراء ، كأنها لهاث مخلوق ميت و لم يعد يدري ما إذا كان خائفا فثمة قلب واحد كان ينبض ملء السماء في ذلك الجسد المترامي على حافة الأفق ، توقف هنيهة و حدق إلى السماء و بدا له المدى غامضا مثل هاوية ، رفع ياقة معطفه و غرس كفيه في جيبيه الكبيرين و فجأة ذاب الخوف و سقط" (كنفاني،1977، ص 168)

إنها الصحراء التي منحت ابنها المتسلل فوقها كثيرا من مقومات الوجود و الثقة فكانت كيانا لجأ الكاتب إلى أنسنته "رآها الآن لأول مرة مخلوقا يتنفس على امتداد البصر، غامضا و مريعا و أليفا في وقت واحد ينقلب في تموج الضوء الذي أخذ يرمد منسحبا خطوة خطوة أمام نزول السماء السوداء من فوق"(كنفاني،1977،ص161)

ويستمر التصوير لذلك الفضاء الهوية "و دون أن ينتابه خوف أو تردد استلقى على الأرض و أحس بها تحته ترتعش كعذراء فيما أخذ شريط الضوء يمسح ثنيات الرمل بنعومة و صمت، عندها فقط شد نفسه إلى التراب و أحسه دافئا ناعما .. غرس أصابعه في لحم الأرض و ذاق حرارته تسيل إلى جسده، و بدا له أنها تنفست في وجهه فلفح لهاثها المستثار وجنتيه و شد إليها فمه و أنفه""(كنفاني،1977،ص169)

لقد شهدت دلالة الصحراء تغيرا في الرواية فالصحراء التي كانت قبرا و جحيما في رجال في الشمس" أصبحت محطة انطلاق البطل حامد في "ما تبقى لكم" إنه تنامي الوعي و البحث عن الوطن المفقود عبر الجسد المترامي، فكانت العلاقة بين البطل حامد و الصحراء هي علاقة تصالح لا اصطدام علاقة تقبل كلاهما للآخر، فكان الفضاء الصحراوي مسرحا للمواجهة بين حامد و العدو كانت الغلبة فيها لحامد" فنعرته برأس السكين المثبت في خاصرته .. حاول أن ينهض و لكنني أجلسته بعنف فاستسلم فارشا كفيه أمامه .." (كنفاني،1977،ص207)

إنه الفضاء الذي بشر بطلائع الفجر و الحرية فكانت رمزا للمواجهة و رمزا للأصالة، بشرت بانتشار الوعي و القدرة على اتخاذ القرار فكانت جسر العبور إلى الذات ،فالصحراء قرين الحرية و من أراد الحرية فلا بد أن يمر على متاهات الصحراء" لقد أراد الروائيون أن يثبتوا فكرة أن الوطن العربي حي و أن إرادة الدفاع عنه حية لا تموت في الفضاء الأصيل ، فالصحراء قرين الحرية و من أراد الحرية فلا بد أن يمر على متاهات الصحراء"لقد أراد الروائيون أن يثبتوا فكرة أن الوطن العربي حي و أن إرادة الدفاع عنه حية لا تموت في الفضاء الأصيل ،وهم بهذا يطرحون البعد الحضاري الحي للصحراء والرؤية الوطنية و الخلفية الثقافية لمسرح الأحداث يركزون على بعد الفضاء الزماني والرؤية المستقبلية و هو ما يشكل فضاء المكان وخلفيته ففضاء الصحراء مفتوح على الماضي والحاضر والمستقبل، مفتوح على الأصالة والامتداد والاستمرارية" (صالح، 2014،2015 ص11) هي صحراء الذات العربية ،صحراء الطهر مقابل دنس المدينة تعتبر أقوى سلاح فنّي في أيدي المبدعين إن هم أحسنوا استغلاله فقد أغنى تجربتهم الإنسانية واستطاعوا بذلك من خلال الفن الأصيل أن ينفذوا إلى كل قطر من أقطار العالم الآخر.

5. جماليات توظيف الصحراء في الرواية العربية :

لقد أثث توظيف الصحراء في الرواية العربية لجمالية ابتعدت عن كل الطروحات الإيديولوجية في محاولة من الروائيين البحث عن المغامرة و ارتحال المتخيل فكانت من التجارب المتميزة التي تشكلت في نسيج اللامنتهي واللامحدود، فقد تعامل الروائيون مع الصحراء باعتبارها مكانا متحركا فهي "تتغيّر كل لحظة، تتكوّن في كل لحظة، إنها عالم في مرحلة التكوين المستمرّ" (معلم، 2007، ص217) كما يعتبر فضاؤها فضاء مفتوحا، لا نهائيا، حيّا، يسعى نحو الامتداد و السيطرة. "فالصحراء فضاء مفتوح، روح عارية، وللروح العارية قوانين أخرى غير الروح المستترة في الجسد، لذلك لابد أن تكون هناك تقنية خاصة باستنطاق هذا المبدأ (معلم، 2007، ص217)

وإلى جانب الامتداد والاتساع الذي تعامل معه الروائيون نجدهم قد لجأوا إلى الارتماء في حضن الأسطورة فمزجوا بين الأسطورة كوسيلة فنيّة و بين الصحراء كفضاء يتعالى و يهيمن كقيمة مركزية بحيث يصبح ذلك المزج أداة فعالة لخلخلة المفاهيم المتوارثة عن المكان الذي يشتغلون عليه . فالصحراء بطبيعتها تعانق الأسطورة و تحتكم إليها، إنها رواية مطعّمة بالأسطورة و ما ذلك الهروب إليها إلاّ نوعا من الهروب من العالم الجحيمي (عالم المدينة و مجتمعها).

وقد عبّر **إبراهيم الكوني** عن ذلك اللجوء إلى الأسطورة: وجودنا لغز لا يكتمل وجوده إلاّ بوجود الثالوث: الرواية – الخلاء – الأسطورة، الرواية روح اللغز و الخلاء جسده و الأسطورة لغته الرواية فيه روح والأسطورة له روح هذه الروح، في هذا الدور يكمن سرّ اللهفة إلى الأسطورة، هنا يكمن سرّ الظمأ إلى الأسطورة، فالسرّ لا يبقى سرّا و الرواية لا تصير رواية إذا لم تتكلم لغة الأسطورة (الغانمي، 2000، ص164)

إن هذا النزوع الأسطوري يلتقي مع الصحراء كعالم بدائي فكانت رواية الصحـراء يقـودها الحنيـن إلى عالم يتخفّى خلـف الرمزي و الأسطوري و خلف الأشكال الأخرى.

وأكّدت **ميرال الطحاوى** في معرض حديثها عن الصحراء على أن الصحراء كعالم متخيل في التجارب الروائية تقتضي توظيفا تراثيا أسطوريا و ذلك التوظيف الأسطوري و التراثي هو الذي جعل الصحراء تغيب كمتن مقروء و مدوّن.

لقد تعامل الروائيون مع السراب كظاهرة تحقق متعة جمالية ممّا جعلهم يقفون عندها بشيء من الحفاوة الفنية فتكون المخيلة البشرية هي الصانع الأول لمثل تلك المشاهد السرابيةو بذلك تغدو الصحراء تيمة محفزة على الشطح الخيالي حيث يتخذ الروائي من الصحراء قوّة فعّالة في عملية الشطح.

هكذا كانت الصحراء عالمـا زاخرا و مكتـظا بجماليات التغـريب و الاندهاش لا بتلك الأفكار المسبقة من جدب و قحط. و إضافة إلى تلك الجماليات التي يتمتّع بها فضاؤها "فإننا نقف أيضا عند خصوصية شديدة الجاذبية من حيث البناء التقني للرواية و حشدها بعناصر حيوية و بلوغها أعلى رتب الكمال من الناحية الجمالية بسبب الجمع بين الشيء و نقيضه و التي تشكل مجموعة ثنائيات ضدّية (الحرّ الشديد # البرد الشديد) (الوضوح # الغموض) و ما يتولد من تلاحم المتناقضات التي تكون مجالا خصبا لإنعاش المتخيّل" (www.essafir.com)

لقد غدت رواية الصحراء بكل تلك الجماليات نصّا سرديّا مستحدثا انبثق من أفكار عميقة ورؤى خاصة و مواقف متنوعة للروائيين ،"تشكلت في ظل رؤية فنيّة ذات امتدادات شديدة التنوع والاختلاف حرص الراوي على تجسيدها بالصورة المثلى و التشكيل الفني المناسب بما تحويه الصورة الروائية من تقنيات (صالح، 1996، ص21)

ومن خلال تلك الجماليات التي تشكلت في ظلها رواية الصحراء أضحت مرآة العرب، "و هي سجّلهم، سجل الأفكار والأحلام، تاريخ من لا تاريخ لهم، تاريخ الفقراء و المسحوقين الذين يحلمون بعالم أفضل، وستكون حافلة بأسماء الذين لا أسماء لامعة لهم، سوف تقول كيف عاشوا و كيف ماتوا و هم يحلمون، و لا بد أن تقرأ الأجيال القادمة التاريخ الذي نعيشه، تاريخ العودة إلى الصحراء لا في كتب التاريخ المصقولة و إنما في روايات الأجيال" (الصائغ، دس، ص341-342)

6. خاتمة:

– إذا كانت المدينة سليلة مجتمع غربي حيث اقترنت نشأتها بالمجتمع البورجوازي باعتبارها ملحمة بورجوازية ، عبرت عن هموم و قضايا و تطلعات المجتمعات الغربية إلا أنه وفي ظل التحولات المجتمعية أضحت الرواية العربية سليلة الصحراء بوصفها نتاجا ثقافيا متأثرا بوعي الكاتب المتشكل داخل فضاء مهمش يستعيد فيه هذا الأخير مركزيته .

– حمل الفضاء الصحراوي سمات عربية خالصة فكانت رمزا للهوية و رمزا للذات العربية و بالتالي فالانسلاخ عنها يعني الموت و الهلاك و التمسك بها يعني الحرية و الحياة.

– استطاعت الرواية العربية التي توغلت إلى عمق الصحراء أن تتخلص من التبعية الغربية و أن تنجز لنفسها خطابا مفارقا في منجزاته و طرائق تشكيله فاستطاع بذلك الروائيون العرب خوض غمار تجربة الكتابة الأصيلة الواعية، فكانت رواية الصحراء بمثابة المخلص الذي خلص العرب من قيود التبعية .

– قاموس الصحراء لا يقوم إلا على القوة و التحدي لذا حاول **غسان كنفاني** أن يثبت هذه الفكرة من خلال أبطال رواياته، فإذا كان أبطال "رجال في الشمس" انهزاميون لم يستطيعوا تحمل قساوة الصحراء و قبلوا صلابة الصهريج على صلابة الأرض فانتهوا ثلاث جثث ملقاة على مزبلة من مزابل صحراء التيه و الضياع ، إلا أن بطل رواية "ما تبقى لكم" احتمل قساوة الفضاء و تصالح معه فكانت النهاية قتل العدو و إثبات الذات و الوجود.

– رواية الصحراء بمثـابة النفـس الجديد و الفردوس المفقود الذي عثر عليه الروائيون، مثّلت نقطة الانطلاق لرسم كيان الأمة العربية من خلال فضاء هامشي منسي ترك تأثيره على البشر و الروائيين ،فأصبح الانفتاح على الآخر انفتاحا تحرريا يدعم حرية الذات، لأن الذات العربية عندما تجد نفسها محاصرة لدرجة صعوبة التنفس تحـاول التمـرّد و الخروج على قوانين الأسوار التي تحيط بها.

6. قائمة المراجع

1. www.essafir.com
2. أحمد عبد الحليم عطية(2010)نيتشه و جذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي ، بيروت، ط1.
3. ألان توريننقد الحداثة،ترجمة: عبد السلام الطويل(2006) إفريقيا الشرق،المغرب،ط1.
4. رزان محمود إبراهيم(2003) خطاب النهضة و التقدم في الرواية العربية المعاصرة – دار الشروق، ط1.
5. سعيد الغانمي (2000) ملحمة الحدود القصوى،المخيال الصحراوي في أدب الكوني،المركز الثقافي العربي،ط1 .
6. شاكر النابلسي (1991) مدار الصحراء، دراسة في أدب عبد الرحمان منيف، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت،ط 1.
7. صالح ولعة (2014)المتخيل الصحراوي في الرواية العربية،منشورات مخبر الأدب العام والمقارن،عنابة،دط.
8. صلاح صالح (1996) الرواية العربية و الصحراء،منشورات وزارة الثقافة،دمشق،دط.
9. غسان كنفاني (1972) رجال في الشمس،دار الطليعة،بيروت،ط1.
10. غسان كنفاني (1977) ما تبقى لكم،دار الطليعة،بيروت،ط1.
11. مُحَّد ذنون الصائغ(دس ن) ثنائية المكان، الاغتراب في الأدب الرواقصصي.
12. ميشال فوكو (2006)، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي،ترجمة: سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي، المغرب،ط1.
13. وردة معلم (2007) الأسطورة و الحرام في رواية عشب الليل لإبراهيم الكوني ضمن مجلة أعمال ملتقى الأدب و الأسطورة – منشورات مخبر الأدب العام و المقارن – عنابة .